المنظومة الشيعية وآلياتها

دكتور عبد الفتاح احمد الفاوى

استاذ الفلسفة بكلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة

لن نخوض هنا فيما خاض فيه غيرنا من حديث فى منظومة التشيع عن عقائد الشيعة ومذاهبهم أو غلوهم واعتدالهم أو فرقهم ودولهم أو غير ذلك مما كتب فيه الكثيرون فى تلك المنظومة من شيعة وغيرهم ولكن ــ فقط ــ سنقصر حديثنا على دراسة منطلقات التشيع وتحليل آلياته وهى أشكالية أهملها الباحثون أو كادوا .

وبداية نقول : ان تقسيم المسلمين الى شيعة وغيرهم أو الى شيعة وسنة تقسيم جانبه التوفيق لأن الاسلام لا يرضى أن ينقسم معتنقوه الى قوم هم شيعة للنبى أو لعلى وأنصار وآخرين ليسوا كذلك ، ولا الى أن ينقسموا الى قوم هم أهل للسنة وأنصار وآخرين ليسوا كذلك ولا يرضى منهم ولا لهم الا أن يكونوا جميعا قبيلا واحدا وجماعة واحدة متفقين غير مختلفين قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (١) اكتفى منهم بالاسلام بعد أن ارتضاه لهم دينا ولم يطالبهم وراءه لا بتشيع ولا بتسنن ، فلا يرضى الله من المسلمين الا أن يكونوا مسلمين أو قل يكتفى الله من المسلمين أن يكونوا ــ فقط ــ مسلمين دونما أو صاف أو ألقاب بعد ذلك ، ولو كانت هذه الألقاب « شيعة » أو « سنة » لا فرق لأن هذا ــ كما يقولون ــ معلوم من الدين بالضرورة ، فلن يكتمل دين المسلم الا اذا كان محبا للرسول ولأهل بيته بل وللمسلمين جميعا ، ولن يكتمل ــ كذلك ــ الا اذا عمل بهدى الرسول وسنته وصار من أنصار ذلك وأهله . ومن من المسلمين لا يحب الرسول وآل بيته ؟ ولم يختص بذلك فريق دون فريق ؟؟

---

(١) آل عمران ١٠٢ .

منطلقات التشيع :

تحديد بدايات التشيع ومنطلقاته من أهم الجدليات التى أثيرت حول موضوعه • فمن الباحثين ـ لاسيما الشيعة ـ من يجعل نقطة البداية فيه زمن النبى صلى الله عليه وسلم فيذهبون الى أن الحركة الشيعية تكونت مع مطلع الرسالة وترعرعت فى أحضانها ونادى بها الرسول صلى الله عليه وسلم • فالكاتب الشيعى « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » يذهب الى أن أول من وضع بذرة التشيع فى حقل الاسلام هو نفس صاحب الشريعة يعنى أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الاسلام جنبا الى جنب ولم يزل غارسها يتعهدها بالسقى والعناية حتى نمت وازدهرت فى حياته ثم أثمرت بعد وفاته • ويستدل على ذلك بأحاديث يوردها عن النبى فى مدح على والاشادة بفضله ومن ثم أهليته ليكون خليفة من بعده (١) •

والى نفس هذا الرأى يذهب الكاتب الشيعى « محمد جواد مغنية » حيث يقول ان النبى هو الذى بعث عقيدة التشيع وأوجدها ودعا الى حب على وولايته ، وأول من أطلق لفظ الشيعة على أتباعه ومريديه ولولاه لم يكن للشيعة والتشيع عين ولا أثر (٢) •

ويؤيد هذا الرأى أيضا « آية الله الخمينى » الذى يذهب الى أن مذهب الشيعة بدأ من نقطة الصفر ، وحين وضع الرسول صلى الله عليه وسلم الخلافة قوبل بالاستهزاء والسخرية وذلك حين جمع قومه وأوما لهم وقال لهم فيما قال : من يكون خليفتى ووصيى ووزيرى على هذا الأمر ؟ فلم ينهض الا على ولم يبلغ الحلم حينذاك وعندئذ قال أحدهم لأبى طالب محرضا ان ابن أخيك يريد أن تسمع لابنك وتطيع ، وفى غدير خم فى حجة الوداع عينه النبى حاكما بعده (٣) •

ومكمن الخطأ فى هذا الرأى أنه لم يكن بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم شيعة وسنة ، وقد أعلن أن الدين عند الله الاسلام لا التشيع

---

(١) محمد الحسين آل كاشف الغطاء : أصل الشيعة وأصولها ٥٣ ، ٥٤ •
(٢) محمد جواد مغنية : الشيعة فى الميزان ١٥ •
(٣) الخمينى : الحكومة الاسلامية ١٣١ •

ولا التسنن وأن الاسلام جاء لكى يرفع الحجز بين الناس فلا هاشمى ولا قرشى ولا تيمى ولا غيره ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقــوى • فلم يكن هناك شيعة لا روحية ولا سياسية بين يدى النبى ولم تظهر كلمة الشيعة مصطلحا على الاطلاق فى ذلك الوقت •

واذا ما استثنينا هذه النظرة التى تبناها ودافع عنها الشيعة أنفسهم فاننا نجد وجهات نظر مختلفة حول بدايات التشيع والأصل الذى انطلق منــه •

١ - الخطاب الحزبى :

هناك من يرجع ظهور التشيع الى الفترة التى تلت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وما أعقبها من اختلاف حول الامامة وما تبع ذلك من ظهور أحزاب ثلاثة أو وجهات نظر ثلاث تبنى احداها الأنصار الذين رأوا أنهم أولى بالخلافة من غيرهم لأنهم أول من آوى الرسول ونصره • وتبنى وجهة النظر الثانية المهاجرون الذين رأوا أنهم أول الناس اسلاما وأول من عبد الله(١) • ووجهة النظر الثالثة تبناها ودافع عنها بنو هاشم وبعض الصحابة الذين رأوا أن بنى هاشم رهط النبى الأدنون وأقربهم اليه ومن ثم لا ينبغى أن تخرج الخلافة منهم •

وقد ذكر الكاتب الشيعى « ابن أبى الحديد » أن من الصحابة الذين فضلوا عليا على كل الصحابة عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وأبا ذر وسلمان الفارسى وجابر بن عبد الله وأبى بن كعب وحذيفة بن اليمان وأبا أيوب الأنصارى ••• وبنى هاشم كافة • بل يقال ان الزبير كان يقول ذلك فى بدء الأمر ثم رجع عنه كما يذكر أن بعض بنى أمية كانوا يرون هذا الرأى اذ يذكر اليعقوبى أن أبا سفيان بن حرب تخلف عن بيعة أبى بكر وقال لعلى بن أبى طالب : امدد يدك أبايعك ثم أنشد :

---

(١) يروون حديثا جاء فيه : لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى من الناس اثنان • صحيح مسلم كتاب الامارة ٣/٦ •

بنى هاشم لا تطعموا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمــر الا فيكم واليــكم وليس لهــا الا أبو حسن على
أبا حسن فاشــدد بها كف حازم فانك بالأمر الذى يرتجى ملى(١)

واستنادا الى هذه الروايات التى لم تسلم من ضعف الاسناد ذهب بعض المستشرقين ومن تأثر بهم الى أن حركة التشيع بدأت مع بدايات الخلاف حول الامامة وأن أتباع هذه الحركة كانوا يمثلون حزبا معارضا قويا فيذهب « جولد زيهر » الى أنه نشأ بين كبار الصحابة منذ بدأت مشكلة الخلافة حزب نقم على الطريقة التى انتخب بها الخلفاء الثلاثة الأول الذين لم يراع فى انتخابهم درجة القرابة من أسرة النبى وقد فضل هذا الحزب أن يختار للخلافة على بن أبى طالب ابن عم النبى وأدنى قريب له والذى كان فضلا عن ذلك زوجا لابنته فاطمة ٠

ولم يجد هذا الحزب فرصة مواتية يسمع فيها صوته عاليا الا عندما كان على رأس الدولة الاسلامية الخليفة الثالث عثمان بن عفان أحد أفراد الأسرة الأموية (٢) ٠

ويذهب أحمد أمين الى مثل هذا الرأى فيقول : كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه وأولى أهل البيت العباس عم النبى وعلى ابن عمه وعلى أولى من العباس ٠ ويقول أيضا : وكان جمع من الصحابة يرى أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأى عمارا وأبا ذر وسلمان وغيرهم ٠ ويذهب الى أن هؤلاء كونوا حزبا وهذا الحزب وجد بعد وفاة الرسول ونما بمرور الزمان وبالمطاعن فى عثمان كما يرى أن هذا التشيع أخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الأخرى فى الاسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية وان كل قوم من هؤلاء كانوا يصبغون التشيع بصبغة دينهم ٠ فاليهود تصبغ التشيع بصبغة يهودية والنصــارى

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ١٠٣/٢ ٠
(٢) جولد زيهر : العقيدة والشريعة ١٨٩ ٠

تصبغة بصبغة نصرانية وهكذا واذا كان أكبر عنصر يخل الاسلام هو العنصر الفارسي كان أكبر أثر فى التشيع انما هو للفرس (١) .

ولكنا لو فرضنا صحة ما ذكره ابن أبى الحديد واليعقوبى فان ما استنتجه أحمد أمين والمستشرقون فيه كثير من التعسف اذ أن أولئك الصحابة المشار اليهم لم يذكر أن أحدا منهم تبنى عقيدة من العقائد التى عرف بها الشيعة كتقديس الأئمة والقول بعصمتهم ورجعتهم ، واذا كانوا قد فضلوا عليا فلم يتجاوز هذا التفضيل رؤيتهم أنه أكفأ من غيره لتولى أمر المسلمين وحينما بويع غير على بالخلافة لم يرفع أحد منهم صوتا أو يبدى اعتراضا ناهيك أن يكونوا حزبا ناقما معارضا .

٢ — مقولة ابن سبا :

وهناك من يميل الى ارجاع بداية التشيع الى أواخر عهد الخليفة عثمان أو الى الحركة السبئية بتعبير أدق . فالملطى فى كتابه التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (٢) يجعل السبئية على رأس فرقة الأمامية وينسب اليهم نشأة التشيع ويقول المقريزى : وحدث أيضا فى زمن الصحابة رضى الله عنهم مذهب التشيع لعلى والغلوفيه فلما بلغه ذلك أنكره وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه وأنشد .

لما رأيت الأمر أمرا منكرا أججت نارا ودعوت قنبرا

---

(١) فجر الإسلام ٢٦٦ هذا وقد استهوت فكرة الأحزاب هذه احد الشيعة المعاصريا فذهب الى ان الناس انقسموا بعد وفاة النبى احزابا خمسة :

١ — حزب سعد بن عبادة رئيس الخزرج من الانصار ٢ — حزب ابى بكر وعمر ومعهما جل المهاجرين ٣ — حزب على ومعه بنو هاشم وقليل من المهاجرين وكثير من الانصار الذين قالوا لا نبايع الا عليا ٤ — حزب عثمان بن عفان من بنى أمية ومن لف لفهم ٥ — حزب سعد بن ابى وقاص وعبد الرحمن من بنى زهرة ومال قسم كبير من الانصار مع حزب ابى بكر وعمر فقوى حزبهما واضطر عثمان وحزب ابن ابى وقاص أن يبايعوا ابابكر وبقى حزب على هو المعارض الوحيد انظر الشيعة فى الميزان ص ٢٥ ويبدو ان الكاتب اللبنانى (محمد جواد مغنية) اثرت عليه الحياة البيروتية ومافيها من صراع حزبى فصور حياة المسلمين الاولى بهذه الصورة المتناقضة .

(٢) ص ١٨ .

وقام عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء وأحدث القول بوصية الرسول لعلى بالامامة من بعده فهو وصى رسول الله وخليفته على أمته من بعده بالنص وأحدث القول برجعة على بعد موته الى الدنيا وبرجعة الرسول أيضا وزعم أن عليا لم يقتل وأن فيه الجزء الالهى وأنه هو الذى يجىء فى السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه وأنه لابد أن ينزل الى الأرض فيملؤها عدلا كما ملئت جورا (١) •

وصار ابن سبأ يتنقل من الحجاز الى أمصار المسلمين يريد اضلا لهم ويذهب الى هذا الرأى أيضا بعض الدارسين المعاصرين الذين عدوا فرقة السبئية أول فرق الغلاة لدى الشيعة ، ويذهب بعض هؤلاء الى أن اليهود هم المؤسسون الحقيقيون للعقيدة الشيعية الغالية • وقد دخل بعض أحبارهم وكهانهم الاسلام وتقدموا الى العالم الاسلامى منتهزين ابعاد على عن الخلافة بفكرة الامام المعصوم أو خاتم الأنبياء •

وقد أثار ربط التشيع بابن سبأ علماء الشيعة وباحثيهم ومن ثم حرصوا على ابعاد هذه الفئة عنهم وشنوا هجوما عنيفا على السبئية محاولين اخراجها من دائرتهم وذهبوا الى أن شخصية ابن سبأ من اختلاق خصوم الشيعة لاظهارهم بمظهر الخارجين على الاسلام ، وأنها شخصية متوهمة لا أثر لها ولا وجود (٢) •

ويذهب طه حسين الى نفس ما يذكره الشيعة من أن ابن سبأ كان متكلفا منحولا قد اخترع بآخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الاسلامية أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا فى خصومة هذا المذهب ـ مذهب الشيعة ـ عنصرا يهوديا امعانا فى الكيد لهم والنيل منهم (٣) •

ولكن فى ضوء الدراسات الحديثة لهذه الفترة الغامضة من التاريخ الاسلامى لم تعد آراء الشيعة وطه حسين وأمثاله عن ابن سبأ والسبئية مقبولة لدى كثير من الباحثين الذين محصوا الأخبار وحققوا الوقائع

---

(١) خطط المقريزى ٢/٢٥٦ •
(٢) أضواء على خطوط محب الدين الخطيب ٢٠ ، ٢١ لعبد الواحد الانصارى •
(٣) طه حسين : الفتنة الكبرى ، على وبنوه ٩٠ ، ٩١ •

المحيطة بحركة السبئية وأثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك حقيقة وجود عبد الله بن سبأ والدور الذى قام به فى تحريك الفتن وتدبير المؤامرات . وهو دور لم يضطلع به ابن سبأ وحده بل انه كان يمثل حلقة فى مخطط يهودى خطير لم يقف طموحه عند اثارة الفتنة فحسب بل بذر وأثار كثيرا من المشكلات العقائدية والفكرية التى كان لها خطرها فى البيئة الاسلامية(١).

٣ ـ قضية التحكيم :

ويذهب فريق ثالث من الباحثين الى ارجاع التشيع من ناحية تاريخية الى تلك الفترة التى أعقبت التحكيم فى الحرب التى دارت بين على ومعاوية . والتشيع فى نظر هؤلاء كان رد فعل لآراء الخوارج المتطرفة حول مشكلة الامامة . فأمام اصرار الخوارج على أن تكون الامامة عامة ذهب الشيعة الى جعل الامامة من حق آل البيت وذرية على وأن تكون بالنص من النبى . والشيعة بهذا المفهوم فى نظر هؤلاء هم الذين ناصروا عليا وأيدوه فى حرب الجمل وصفين حينما تفرقت من حوله طوائف المسلمين . يقول ابن النديم فى كتابه الفهرست (٢) لما خالف طلحة والزبير على على رضى الله عنه وأبيا الا الطلب بدم عثمان وقصدهما على ليقاتلهما حتى يفيئا الى أمر الله تسمى من اتبعه على ذلك « الشيعة » وكان يقول : « شيعتى » .

ولو صحت هذه الرواية التى يذكرها ابن النديم فان الناظر الى اتباع على رضى الله عنه فى هذه الفترة لا يجد أنه كانت تجمعهم مبادىء مشتركة أو بواعث موحدة اذ كان بين أصحابه ابن عباس وعمار بن ياسر وحجر ابن عدى كما كان بينهم كثير من الأنصار الذين لا يشك فى دينهم ولا فى اخلاصهم وكان بين أتباعه طائفة من العلماء والفقهاء وحملة القرآن والعباد وجميع هؤلاء لم تكن تبعيتهم لعلى رضى الله عنه تبعية عمياء بل كانوا مجتهدين فى البداية رأوا أنه أكفأ من يكون لتولى الخلافة وأنه الامام الذى بويع وينبغى مناصرته ولا يجوز الخروج عنه من غير سبب يدعو لذلك ولكن لم يروا له الطاعة فى كل ما يرى من الأمور ومن ثم فان

---

(١) د/محمود قاسم : دراسات فى الفلسفة الاسلامية ١٠٩ ، ١١٠ .
وانظر : سليمان بن حمد العودة : ابن سبأ وأثره فى احداث الفتنة فى صدر الاسلام .
(٢) ص ٢٦٣ .

بعضهم قبل التحكيم فى حرب صفين رغم كراهية على لذلك . والى جانب هؤلاء كان هناك بعض الطامعين ومروجو الفتنة وكثير ممن شاركوا فى مقتل الخليفة عثمان .

وهكذا نجد هذه الجماعات التى ضمها معسكر على ابان حروبه مع خصومه لا تكون حزبا منظما يدين بالطاعة المطلقة لعلى ولا تجمعهم عقيدة مشتركة فى آل البيت فاذا ما أطلقت كلمة شيعة على هذه الجماعات فانها لا تخرج فى دلالتها عن معناها اللغوى العام الذى يشير الى الاتباع والأنصار . ويؤيد هذا ماورد فى نص الصحيفة التى كانت فى التحكيم حيث ذكر فيها شيعة على الى جانب شيعة معاوية (١) مما يدل على أن شيعة على لا تشير الى المعنى الاصطلاحى لهذا اللفظ والذى اكتسب مدلولا خاصا فيما بعد .

٤ ــ ماساة كربلاء :

أما وجهة النظر الرابعة فتربط بداية التشيع ومنطلق الشيعة بفاجعة كربلاء والتى انتهت بمقتل الحسين ، ويعتبر أصحاب هذا الرأى أن استشهاد الحسين فى كربلاء يمثل نقطة تحول هامة فى التاريخ الفكرى والعقائدى للشيعة .

وأهمية هذه الحادثة لا تعود الى أنها أذكت حماس الشيعة ووحدت صفوفهم بل تعود أهميتها الى أن التشيع بعدها تحول من مجرد رأى سياسى الى عقيدة راسخة فى نفوس الشيعة فقد أدرك الشيعة بعد هزيمة كربلاء وماتلاها من حركات يائسة أنهم لا قبل لهم بمقاومة سلطان بنى أمية بالسيف والقوة فاستعانوا على ستر أمرهم وحولوا الحرب بينهم وبين الأمويين من حرب سياسية الى حرب فكرية تتخذ من الستر والتقية أسلوبا ومن هنا يرى كثير من الباحثين أن التشيع كعقيدة ومذهب تبلور فى هذه الفترة ، وكانت كربلاء منطلقا له . فالمستشرق « شتروثمان » يكتب فى دائرة المعارف الاسلامية قائلا : وكان مقتل الحسين الذى لقى مصرعه بسيوف

---

(١) الطبرى ٥/٩٥ .

(٢) الكلمة منحوتة من كلمتى « كرب وبلاء » .

جند الدولة أكثر مما كان دم علي الذى اغتاله فرد من الخوارج هو بذرة مذهب الشيعة (١) .

والى مثل هذا الرأى يذهب « علي حسن الخربوطلي » فيقول فى كتابه تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (٢) ان الحركة الشيعية بدأ ظهورها فى العاشر من المحرم وصبغت مبادىء الشيعة بصبغة دينية فاتجهت الشيعة بعد مقتل الحسين اتجاها دينيا بل غلب الجانب الدينى فى التشيع الجانب السياسي .

فبعد مقتل الحسين تكونت حركة التوابين بالكوفة وهم جماعة آلمهم المصير المحزن الذى انتهى اليه الحسين وشعروا بأنهم بتقصيرهم عن نصرته شاركوا فى ايراده هذا المورد ، وتعاهدوا فيما بينهم على الانتقام له والقصاص من قتلته وأخذ الثأر منهم . ويصور المسعودي دوافع هذه الجماعة فيقول : وفى سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأ كبيرا بدعاء الحسين اياهم ولم يجيبوه ، ولمقتله الى جانبهم فلم ينصروه ورأوا أنه لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله أو القتل فيه (٣) . وصمم هؤلاء على الأخذ بثأر الحسين وتحركوا بقيادة نفر منهم سليمان بن صرد الخزاعى ووصلوا الى موضع بالعراق يقال له « عين الوردة » مطالبين بدم الحسين فالتحموا مع الجيش الأموي وانتهى الأمر بقتل قائدهم سليمان بن صرد وغالبية أتباعه (٤) ، كما ظهر أيضا بعد ذلك المختار بن أبى عبيد الثقفى وقاد جماعات من الشيعة بالكوفة وقاموا بتتبع قتلة الحسين واقتصوا منهم وأطلق على هذه الجماعة « الشيعة » وبعد هذه الفترة أخذت الشيعة تتكون كفرقة كلامية تضع أصول التشيع وتقعد المبادىء وتدافع عنها .

واذا ما استعرضنا هذه الآراء مجتمعة يمكن القول ان كلمة شيعة قد استخدمت ولفترة طويلة فى مدلولها اللغوى العام وللاشارة الى اتباع على وأعوانه وربما كان من بين هؤلاء الأعوان جماعة من الصحابة أنفسهم

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : الشيعة . الترجمة العربية ، المجلد الرابع عشر ص ٥٩ .
(٢) ص ١٢٣ .
(٣) مروج الذهب ٣/١٠٠ .
(٤) السابق ١٠١ – ١٠٣

رأوا أنه أكفا من غيره لتولى أمر المسلمين ، ولكن لم يصل بهم الحد الى تفضيله على أبى بكر وعمر كما ورد عن أحد الشيعة وهو شريك بن عبد الله (١) انه كان يفضل أبا بكر وعمر فقيل له أنت من شيعة على وأنت تفضل أبا بكر وعمر ؟ فقال كان شيعة على على هذا وكان على يقول على أعواد هذا المنبر : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر أفكنا نكذبه والله ما كان كذابا (٢) .

وكان من بين أتباع على جماعات حاربت معه بعد مقتل الخليفة عثمان وربما فضله بعضهم على معاوية بل وعلى عثمان . يقول نشوان الحميرى :

« كانت الشيعة الذين شايعوا عليا عليه السلام على مثال طلحة والزبير وعائشة ومعاوية والخوارج فى حياة على عليه السلام ثلاث فرق :

١ ــ فرقة منهم وهم الجمهور الأكبر يرون امامة أبى بكر وعمر وعثمان الى أن غير السيرة وأحدث الأحداث ، ٢ ــ وفرقة منهم أقل من هؤلاء عددا يرون الامام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر ثم عمر ثم عليا ولا يرون لعثمان امامة . وحكى الجاحظ : أنه كان فى الصدر الأول لا يسمى شيعيا الا من قدم عليا على عثمان ولذلك قيل شيعى وعثمانى فالشيعى من قدم عليا والعثمانى من قدم عثمان ، وكان واصل بن عطاء ينسب الى الشيعة فى ذلك الزمان لأنه كان يقدم عليا على عثمان ، ٣ ــ وفرقة منهم يسيرة العدد جدا يرون عليا أولى بالامامة بعد رسول الله ويرون امامة أبى بكر وعمر كانت من الناس على وجه الرأى والمشورة ويصوبونهم فى رأيهم ولا يخطئونهم الا أنهم يقولون : ان امامة على كانت أصوب وأصلح وكان الشيعة كذلك حتى مقتل الحسين (٣) . وقد اتخذ هؤلاء من حب الله شعارا حركوا من ورائه الفتن وأثاروا من خلفه عقائد باطلة أنكرها على نفسه كتأليهه والقول برجعته وتمثل تلك الجماعات

---

(١) شريك بن عبد الله النخعى الكوفى تولى القضاء بواسط والكوفة ولد عام ٩٠ وتوفى عام ١٧٧هـ وصف بأنه صدوق يخطىء كثيرا تغير حفظه منذ ولى قضاء الكوفة كان يقدم عليا على عثمان . انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٣٣٣/٤ ــ ٣٣٧ وتقريب التهذيب له أيضا ٣٥١/١ .

(٢) ابن تيمية : كتاب النبوات ١٣٢

(٣) أبو سعيد نشوان الحميرى : الحور العين ص ١٨٠ تحقيق كمال مصطفى .

وما نادت به من آراء البذور الأولى للحركة الشيعية فى صورها المختلفة وسرعان ما نمت هذه البذرة وترعرعت وبدت فى صور مذاهب عديدة .

المذهب الشيعى اذن قد تكون فى هذه الفترة وكان الكلام من قبل — كما يقول القاضى عبد الجبار — فى التفضيل ومن هو أولى بالامامة وما يجرى مجراه (١) .

وبناء على هذا ينص ابن المرتضى على أن مذهب الرافضة قد حدث بعد مضى الصدر الأول . ولم يسمع عن أحد من الصحابة من يذكر أن النص فى على جلى ولا فى اثنى عشر اماما واذا زعموا أن عمارا وأبا ذر والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسى كانوا سلفهم لقولهم بامامته عليه السلام اكذبهم كون هؤلاء لم يظهروا البراءة من الشيخين ولا السب لهما (٢) .

وهكذا يمكن القول بأن التشيع لم يكن مع هذه الجدلية مذهبا واحدا بل انه اتخذ أطوارا مختلفة ومر بمراحل عديدة فقد كان لكل عصر نوع من التشيع ولكل طائفة شيعية لون منه . فقد وجد المعاصرون لعلى الذين أبرزوا فضائله وكفاءته كما ظهر فى عهده من فضل عليا على عثمان فقط وظهر بعد ذلك الرافضة الذين رفضوا ولايتى أبى بكر وعمر ثم ظهر الغلاة الذين كفروا الصحابة ويذكر الذهبى ت ٧٤٨ أن الشيعى الغالى فى زمان السلف وعرفهم هو من يتكلم فى عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممن حارب عليا رضى الله عنه وتعرض لسبهم ، والغالى فى زماننا وعرفنا هو الذى يكفر هؤلاء السادة ويبدأ من الشيخين أيضا (٣) . وتعددت الطوائف من امامية اثنى عشرية وزيدية واسماعيلية واتصل التشيع الاسماعيلى ببعض الفلسفات الغنوصية والأديان والمذاهب واتخذ اشكالا وتبنى عقائد تنوعت بتنوع المصادر التى استقت منها هذه الجماعة أو تلك .

---

(١) المغنى ١٢٧/٢٠ .
(٢) طبقات المعتزلة ٥ ، ٦
(٣) الذهبى . ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ٦/١

آليـات التشيع :

يستطيع الباحث أن يحدد داخل آليات التشيع عنصرين رئيسيين أو بعدين أساسيين قام عليهما وامتد اليهما أحدهما البعد السياسى والآخر البعد الدينى •

١ ـ البعد السياسى : تولى الخلافة بعد النبى صلى الله عليه وسلم صاحبه أبو بكر الصديق ثم تلاه عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم على بن أبى طالب • وبينما يذهب المسلمون أن عليا قد قبل الخلافات الثلاث وأطاع الخلفاء الثلاثة وأحسن لهم المشورة يذهب الشيعة الى أنه كان مكرها وحين تولى آخر الأمر لم يبق فى خلافته الا زمنا يسيرا ثم قتل غيلة ثم قتل ابنه الحسن مسموما ، وقتل الحسين ابنه الآخر فى سهل كربلاء وقتل أولاده معه ولم يبق الا ولدان تناسلت منهما الأسرة العلوية وتتابع القتل بحيث يعتبر تاريخ تلك الأسرة بحق مأساة من أكبر المآسى فى تاريخ الانسانية • ولقد صور الشيعة تلك المآسى تصويرا أخاذا وبكى شعراء الشيعة أهل البيت بكاء مريرا ورأوا فيهم صورة الانسانية الحزينة • وبقى البكاء سمة للشيعة حتى قيل « أرق من دمعة شيعية » •

وأيا ما كان الأمر فالخلاف بين الشيعة وغيرهم آنذاك خلاف سياسى ـ لا دينى ـ أو قل خلاف الى السياسة أقرب منه الى الدين • فلم يكن بين القوم خلاف دينى يرجع الى الكفر والاسلام كما أقر بذلك على رضى الله عنه حيث قال مخاطبا جنده عن معاوية ومعسكره :

« أوصيكم عباد الله تقوى الله فانها خير ما تواصى به العباد وخير عواقب الأمور عند الله ، وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة » (١) وقد زاد على هذا الأمر وضوحا فى كتاب له الى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين بين فيه حكم من ناضلوه وقاتلوه وموقفه منهم جاء فيه : « وكان بدء أمرنا أنا التقينا والقوم من أهل الشام والظاهر أن ربنا واحد ونبينا واحد ودعوتنا فى الاسلام واحدة ، ولا نستزيدهم فى الايمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا • الأمر واحد الا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء » (٢) ولأجل ذلك منع أصحابه من سب أهل

---

(١) نهج البلاغة ٣٦٧ •
(٢) السابق ٤٤٨

الشام وأنصار معاوية وشتمهم اياهم أيام حربهم بصفين اذ يقول : « انى أكره لكم أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول وأبلغ فى العذر وقلتم مكان سبكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم » (١) .

ومن طريف ما يذكر فى ذلك أن أبا العالية ـ وهو تابعي مشهور ـ أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يسلم الا بعد وفاة النبى فى عهد أبى بكر روى عنه أبو خلدة أنه قال : قال أبو العالية : لما كان زمان على ومعاوية وانى لشاب ، القتال أحب الى من الطعام الطيب ، فجهزت بجهاز حسن أتيتهم فاذا صفان ما يرى طرفاهما اذا كبر هؤلاء كبر هؤلاء واذا هلل هؤلاء هلل هؤلاء فراجعت نفسى فقلت : أى الفريقين أنزله كافرا ؟ ومن أكرهنى على هذا ؟ قال فما أمسيت حتى رجعت وتركتهم (٢) .

وابن النديم ـ وهو شيعى ـ يرى أن تكوين الشيعة كان بسبب من الخلافة والسياسة اذ يقول : « ولما خالف طلحة والزبير على على رضى الله عنه وأبيا الا الطلب بدم عثمان وقصدهما على عليه السلام ليقاتلهما حتى يفيئا الى أمر الله تسمى من اتبعه على ذلك باسم الشيعة » (٣) .

وبمثل هذا القول قال ابن حزم فى الفصل (٤) من المتقدمين وأحمد أمين (٥) وغيره الكثيرون من المتأخرين .

وأيا ما يكن فالتجاهر بالتشيع لم يظهر الا بعد مقتل عثمان (٦) وكان بسبب من السياسة حيث وجد آنذاك حزبان سياسيان كبيران من المسلمين :

---

(١) السابق ٣٢٣
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٠ ، طبقات ابن سعد ٧/ ١١٤
(٣) الفهرست ٢٤٩
(٤) ٤/ ٧٩
(٥) فجر الاسلام ٢٦٦
(٦) هذا هو الصحيح لان الاسماء لا توجد قبل المسميات ولا الاحزاب قبل الخلافات فلما وجد الخلاف تحزب لكل راى حزب وتعصبوا جماعات وفرقا فآنذاك وجدت الجماعات ووجدت لها الاسماء ولم يكن هناك خلاف بين المسلمين ولم يتعصب له اشخاص قبل مقتل عثمان وقبل النتائج التى نتجت من قتله وبعد تولية على امرة المؤمنين وخلافة المسلمين . وعندئذ نشأ الخلاف فمنهم من رأى على وانصاره ومنهم من راى راى طلحة والزبير ثم راى معاوية واتباعه .

شيعة على وشيعة معاوية ، وكل واحد منهما يرى رأيه فى تولية الحكم وتدبير الأمور •

وهذا الخلاف لم يجر واحدا منهما الى تكوين مذهب جديد واعتناق عقائد جديدة ، ولا الى انكار ما ثبت فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ولا الانحراف عن الجادة المستقيمة التى سلكها الرسول ومن بعده أبو بكر وعمر وعثمان ، كما لم يكن هناك مباغضة للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين قضوا نحبهم قبل ، ولا اثارة الى الضغائن القبلية والمبنية على الحسب والنسب ، ولم يكن لأنصار على « الخلص منهم » عقائد شيعة اليوم المنطوية على بغض الصحابة وأزواج الرسول والمبنية على انكار القرآن الموجود بأيدى الناس بل كانوا محبين لأصحاب الرسول وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان وأزواج النبى • وكان على رضى الله عنه يوالى الخلفاء قبله ويقتفى آثارهم ويعاند كل من يعارضهم ويعاقب كل من يتكلم فيهم كما كان يحارب تسرب أفكار السبئية واليهودية فى أتباعه ، وقد ذكرت الشيعة أن عليا سمى أبناءه بأسماء الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان ، وابنه الحسن وابنه الحسين سموا أبناءهم كذلك (١) •

وتذكر الشيعة أن الحسن صالح معاوية بن أبى سفيان على أن يعمل بين الناس بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين وألا يعين أحدا بعده وأن يؤمن الناس أينما كانوا فى الشام والعراق والحجاز واليمن وأن يؤمن شيعة على وأصحابه فى أنفسهم وأموالهم وأزواجهم وأولادهم وأخذ على هذه الشروط العهود المغلظة (٢) •

فجعل الحسن أحد شروط الصلح مع معاوية أن يكون متبعا لسيرة الخلفاء الراشدين ولم يكن ذلك الا لأنه كان يحسن الظن فيهم ويعتقد فيهم الخير ويؤمن بتقواهم وطهارتهم ، ومثل هذا كثير لمن تتبع أخبار على وأولاده • والذى وقع بين على ومعاوية لم يؤد الى التكفير والتفسيق فيما بينهم ولا

---

(١) اعلام الورى للطبرسى ص ٢٠٣ ، الارشاد للمفيد ص ١٨٦ ، تاريخ اليعقوبى ٢/٢١٣ ومقتل الطالبيين لابى الفرج الاصبهانى ١٢٤ ، كشف الغمة للاربلى ٢/٦٤ •

(٢) جلاء العيون ١/٣٩٣ ، الفصول المهمة فى معرفة احوال الائمة ١٦٣

الى المقاطعة الدائمة ـ كما تصوره بعضهم ـ بل كل واحد من الحزبين كان يعتقد بايمان الآخر ويحب الاصلاح وعلى ذلك صالح الحسن بن على معاوية ولو كان يظنه كافرا لما اتفق معه أو صالحه أو أمر أخاه الحسين أن يبايعه . وكذلك لو كان هناك تكفير بين الفريقين لما تزوجت رملة بنت على بن أبى طالب من معاوية بن مروان بن الحكم (١) ورملة بنت على كانت أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفى (٢) وابنته الثانية خديجة كانت متزوجة من عبد الرحمن بن عامر الأموى (٣) ، كما أن بنات الحسن وبنات الحسين زوجن من الأمويين وبنات الأمويين زوجن من أبناء الهاشميين ومن أولاد على بالأخص ونخص بالذكر سكينة بنت الحسين وحفيدة على تزوجت من حفيد عثمان زيد بن عمرو ونفيسة بنت زيد بن الحسن بن على تزوجت من الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بن مروان والستة من حفيدات الحسن من أبناء مختلفين كن متزوجات من الأمويين من قادتهم وزعمائهم كما تزوج كثير من العلويين من بنات الأمويين ومن الأسرة الحاكمة بالذات . كل ذلك ذكره الشيعة فى كتبهم (٤) .

وكانت الشيعة أو آل البيت يفدون على الحكام فكان الحسن والحسين يفدان على معاوية فيكرمهما معاوية ويعطيهما عطاء جزيلا حتى أطلق لهما فى يوم واحد مائتى ألف وقال خذاها وأنا ابن هند والله لايعطيكماها أحد قبلى ولا بعدى فقال الحسين والله لن تعطى أنت ولا أحد قبلك ولا بعدك رجلا أفضل منا ، ولما توفى الحسن كان الحسين يفد الى معاوية فى كل عام فيعطيه ويكرمه وغير ذلك كثير (٥) .

كما كانوا يصلون خلف حكام الأمويين وأمرائهم وقد ذكر جعفر بن محمد الباقر عن أبيه عن على زين العابدين أن الحسن والحسين كانا يصليان خلف مروان ويعتدان بها ولا يعيدانها (٦) ، وكان مروان آنذاك على المدينة كما صلى الأمويون على العباس بن عبد المطلب عم على رضى الله عنهما ، وغير ذلك كثير أيضا .

---

(١) جمهرة انساب العرب ٨٧ وانظر : جلاء العيون للمجلسى ٣٩٥/١
(٢) الارشاد المفيد ١٨٦ وأعلام الورى للطبرسى ٢٠٣
(٣) جمهرة أنساب العرب ٦٨
(٤) عمدة الطالب فى انساب أبى طالب ٧٠ ، طبقات ابن سعد ٢٣٤/٥
(٥) السابق .
(٦) البداية والنهاية ٢٥٨/٨

وكتب التاريخ والسير غاصة بمواقف التقدير المتبادلة بين على وآل بيته من جهة وبين الصحابة وبخاصة الخلفاء الراشدون منهم من جهة أخرى . يقول على فى بيعته لأبى بكر فمشيت عند ذلك الى أبى بكر فبايعته ونهضت فى تلك الأحداث حتى زاغ الباطل وزهق ... فتولى أبو بكر تلك الأمور فيسر وسدد وقارب واقتصد فصحبته مناصحا وأطعته فيما أطاع الله فيه مجاهدا (١) . ويقول أيضا فى أبى بكر : انه قارب وسدد بحسب استطاعته على خوف وجد (٢) . كما قال : لولا أننا رأينا أبا بكر أهلا لما تركناه . ولم ينقل عنه أنه كان يعد نفسه أو أهل بيته مختلفين عن أبى بكر وعمر وعثمان بل كان يفضلهم عليه وعلى أولاده وكان ينهج منهجم ويسلك سبيلهم وكان يعد خلافته امتدادا لخلافتهم كما ذكر ذلك فى خطبته المشهورة المنقولة عنه . وقال مخاطبا معاوية فى كتاب له اليه :

انه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على مابايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وانما الشورى للمهاجرين والأنصار فان اجتمعوا على رجل وسموه اماما كان ذلك لله رضى فان خرج عن أمرهم خرج بطعن أو بدعة ردوه الى ما خرج منه فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى .

ولعمرى يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان ولتعلمن أنى كنت فى عزلة عنه الا أن تتجن مابدا لك والسلام (٣) .

اثبتت ذلك كتب الشيعة كما أثبتت مثله عن آل بيته رضى الله عنه فقد رووا أن رجلا سأل الامام الصادق ما تقول فى حق أبى بكر وعمر ؟ فقال اماما عادلان قاسطان كانا على الحق وماتا عليه فعليهما رحمة الله يوم القيامة (٤) ويروى السيد المرتضى فى كتابه الشافى عن جعفر بن محمد أنه كان يتولى الشيخين ويأتى القبر فيسلم عليهما (٥) ، ويقول زين العابدين

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤٠٠/١

(٢) السابق ١٣٠/١

(٣) نهج البلاغة ٣٦٦

(٤) الشوشترى : احقاق الحق ١٦/١

(٥) الشافى ٢٣٨ وانظر شرح نهج البلاغة ١٤٠/٤

بن الحسن وقد سئل عن أبى بكر وعمر فقال : ما أقول فيهما الا خيرا كما لم أسمع فيهما من أهل بيتى (بيت النبوة) الا خيرا ما ظلمانا ولا أحدا غيرنا وعملا بكتاب الله وسنة رسوله (١) .

وبعد هذا العصر تطور التشيع وتغيرت الشيعة وتأثروا بأفكار يهودية ومجوسية ونصرانية وبعقائد مدخولة مدسوسة تولى كبر بثها ونشرها بينهم عبد الله بن سبأ وأتباعه وساعد هؤلاء أن شيعة على كان يغلب عليهم التخاذل والتكاسل والجبن وعدم الاستقامة عكس ما كانت عليه شيعة عثمان أو شيعة معاوية كما كان يغلب عليهم عدم الوفاء والأخلاص عكس مخالفيهم وعلى ذلك كان على يشكو منهم ويواجه الصعاب والمتاعب مع شجاعته النادرة وجرأته المشهورة وكان يقول لهم : يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال ، لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفة — والله — جرت ندما وأعقبت سدما (٢) .

ويقول مقارنا بينهم وبين شيعة معاوية : أما والله ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لأنهم أولى بالحق منكم ولكن لاسراعهم الى باطل صاحبهم وابطائكم عن حقى ، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتى ... يا أهل الكوفة .. والله لكأنى بكم فيما اخالكم أن نوحمى الوغى وحمى الضرب قد أنفرجتم عن ابن أبى طالب انفراج المرأة عن قبلها (٣) .

وأكبر دليل على خذلان الشيعة عليا أن أخاه وكبير شيعته عقيل بن أبى طالب تركه والتحق بمعاوية (٤) ، وأما ما فعلوه بالحسن وبعده بالحسين فهذه ودائع فى التاريخ لا يمكن التستر عليها لو سردناها لطال بنا الكلام .

هكذا كان الجانب السياسى هو الأظهر فى آليات التشيع فلم يكن الشيعة يختلفون عن غيرهم فى شيء من العقائد والأفكار ، ولم يكن لهم مذهب خاص غير مذهب المسلمين ولا عبادات وشعائر وطقوس مخصوصة ،

---

(١) ناسخ التواريخ ٢/٥٩٠ .
(٢) نهج البلاغة ٦٧
(٣) عمدة الطالب فى انساب ابى طالب ١٥ .
(٤) الاصول من الكافى ١/٢٣٧

وخطبة على التى خطبها وهو قابض على يد سويد بن غفلة تدل على ذلك إذ يشيد فيها بأبى بكر وعمر ينفى عن نفسه أنه يعترض عليهما فيقول فيها : ما بال أقوام يذكرون سيدى قريش وأبوى المسلمين بما أنا عنه متنزه ومما قالوا برىء وعلى ما قالوا معاقب ... فمن أحبنى فليحبهما ومن لم يحبهما فقد أبغضنى وأنا منه برىء .. وهى خطبة طويلة أوردها كثيرون من الشيعة ومن السنة مما (١) .

حاول على رضى الله عنه أن يحفظ على شيعته دينهم وعقيدتهم واعتدالهم فى موقفهم من الصحابة حتى ولو رأوا أنه أحق بها منهم .

وفى وقعة الجمل كاد الطرفان أن يصطلحا أو اصطلحا بالفعل وبات الناس كما يقول ابن كثير بخير ليلة وبات قتلة عثمان بشر ليلة وباتوا يتشاورون وأجمعوا أن يثيروا الحرب من الغلس وعندما نشبت الحرب قال على لابنه الحسن : يا بنى . ليت اباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاما « فقال له يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا » (٢) وقالت عائشة عندما جهزها على وأرجعها الى المدينة انه والله ما كان بينى وبين على فى القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها وانه عندى على معتبتى من الأخيار . وقال على : صدقت والله وبرت ما كان بينى وبينها الا ذلك وانها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة (٣) . وكان على يقول عن أهل حربه : أنا لم نقاتلهم على التكفير لهم ولم يقاتلونا على التكفير لنا ولكنا رأينا أنا على حق ورأوا أنهم على حق وعبارته المشهورة « هم اخواننا بغوا علينا » (٤) .

وقد سأل بعض أصحاب على عليا أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير فأبى عليهم فطعن فيه بعضهم وقال : كيف يحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم ؟ فبلغ ذلك عليا فقال : أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين فى سهمه فسكت القوم .

---

(١) لسان الميزان لابن حجر العسقلانى ٢٩٠/٣

(٢) البداية والنهاية ٢٣٩/٧

(٣) الطبرى ٢٢٥/٥

(٤) منهاج السنة لابن تيمية ٦١/٣ ، تهذيب ابن عساكر ٧٣/١

ويروى المستشرق « ولهوزن » أن القدماء من شيعة على وأنصاره يعدونه فى مرتبة مساوية لسائر الخلفاء الراشدين فكان يسلك مع أبى بكر وعمر وكذلك مع عثمان ـ لما كان عادلا فى خلافته ـ فى سلك واحد ، وكان يوضع فى مقابل الأمويين المغتصبين للخلافة بوصفه استمرارا للخلافة الشرعية وحقه فى الخلافة ناشى عن أنه كان من أفاضل الصحابة وأنهم وضعوه فى القمة وتلقى البيعة من أهل المدينة ولم ينشأ هذا الحق ـ أو على الأقل لم ينشأ مباشرة ـ عن كونه من آل بيت الرسول (١) .

هذه هى أبعاد الجانب السياسى فى المنظومة الشيعية وهى أبعاد لها فعاليتها فى آليات تلك المنظومة وتوجهاتها .

٢ ـ البعد الدينى :

لا يعدو التشيع فى مفهومه الدينى آن يكون محبة للرسول وآل بيته . وهذا القدر مشترك وعام بين المسلمين جميعا فلا يوجد مسلم لا يدين بهذا الحب . قال صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه التى بين جنبيه . وقال تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » (٢) فاختلاف المسلمين غير وارد فى ذلك القدر من معنى التشيع وانما الخلاف بينهم فيما وراء ذلك من حدود تلك المحبة ومقتضياتها وتحديد آل البيت ومودتهم .

« ما صدق » آل البيت :

أما عن آل البيت فمن العلماء من ضيق دائرتهم وحصرها فى على وفاطمة والحسن والحسين ومنهم من توسط فجعلها تشمل كل بنى هاشم ومنهم من توسع فيها فجعلها تمتد الى كل بطون قريش . روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى : « الا المودة فى القربى » فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت . ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش الا كان له فيهم قرابة . فقال الا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة فبينما يرى سعيد ابن جبير قربى الرسول هم آل بيته يرى ابن عباس أنها كل بطون قريش ،

---

(١) الخوارج والشيعة ١٧١
(٢) سورة الشورى ٢٣

ويروى السدى عن أبى الديلم أنه قال : لما جيء بعلى بن الحسين أسيرا فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهـل الشام فقال الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة . فقال له على بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال نعم . قال أقـرأت آل حم ؟ قال قرأت القـرآن ولم أقرأ آل حم قال : ما قرأت : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » قال وانكم لأنتم هم ؟ قال نعم (١) .

كما روى عن ابن عباس أن الأنصار قالت : فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا فقال ابن عباس لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فى مجالسهم فقال يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بى ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال أفلا تجيبونى ؟ قالوا ما تقول يا رسول الله ؟ قال ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك أو لم يكذبوك فصدقناك أو لم يخذلوك فنصرناك . قال فمازال صلى الله عليه وسلم يقول حتى جثوا على الركب وقالوا أموالنا فى أيدينا لله ولرسوله قال فنزلت قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى (٢) .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية : « قل لا أسألكم قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال فاطمة وولداها رضى الله عنهم ويعلق ابن كثير على هذه الرواية بأن هذه الآية مكية ولم يكن اذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية فانها لم تتزوج بعلى الا بعد بدر من السنة الثانية للهجرة .

وروى الامام أحمد عن يزيد بن حبان أنه قال انطلقت أنا وحصين ابن مسرة وعمر بن مسلم الى زيد بن أرقم فلما جلست اليه قال حصين لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه . لقد رأيت يا زيد خيرا كثيرا حدثنـا يا زيد ما سمعت من رسول الله فقال : يا ابن أخى لقد كبر سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما حدثتكم فاقبلوه وما لا فلا تكلفونيه . ثم قال رضى الله عنه قام رسول

---

(١) تفسير ابن كثير ١١٢/٤

(٢) السابق والصفحة .

الله صلى الله عليه وسلم يوما خطيبا فينا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال صلى الله عليه وسلم أما بعد : أيها الناس ، انما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب وانى تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه وقال صلى الله عليه وسلم وأهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال ان نساءه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده ، قال من هم ؟ قال هم آل على وآل عقيل آل جعفر وآل العباس رضى الله عنهم قال أكل هؤلاء حرم عليهم الصدقة قال نعم (١) .

ولكن مما يرشح أن آل بيت النبى على وفاطمة والحسن والحسين قصة المباهلة مع وفد نجران عندما أتوا الى الرسول وسألوه عن حقيقة المسيح فنزل القرآن : « ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ... ثم دعا الى المباهلة فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . ورضى الوفد بالمباهلة فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذا بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلى بين يديه وألقى عليهم الرسول الكساء ثم جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وركع فانسحب الوفد النجرانى هاربا ورفض المباهلة (٢) .

« مفهوم المودة وحدودها » :

وكما اختلف العلماء فى المقصود بآل البيت اختلفوا فى مقتضى المودة المطلوبة لهم وهل تقتضى أن الخلافة والامامة لابد أن تكون فيهم ، وأن تقديمهم فيها واجب ، وأنهم الأئمة وولاة أمر المسلمين سواء خول ذلك لهم أم لم يخول أم لا تقتضى شيئا من ذلك وانما تقتصر فقط على الميدان الاجتماعى دون السياسى .

---

(١) رواه مسلم والنسائى وانظر تفسير ابن كثير ١١٣/٤
(٢) د/على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ٦/٣ وانظر قصة الملاعنة بكل رواياتها فى تفسير ابن كثير ٣٧٠/١ وغيره من التفاسير .

روى عن العباس بن عبد المطاب قال : قلت يا رسول الله ان قريشا اذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن واذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها قال : فغضب النبى صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا وقال : والذى نفسى بيده لا يدخل قلب الرجل الايمان حتى يحبكم لله ولرسوله ، وفى رواية أخرى أن العباس دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا لنخرج فنرى قريشا تحدث فاذا رأونا سكتوا فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودر عرق بين عينيه ثم قال : والله لا يدخل قلب امرىء مسلم ايمان حتى يحبكم لله ولقرابتى (١) .

فالمودة هنا تعنى المقابلة الكريمة والمعاملة الطيبة لآل البيت بالتودد اليهم والبشاشة فى وجوههم وحسن صلتهم ومحبة الخير لهم . وقد روى أن أبا بكر الصديق قال لعلى : والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى أن أصل من قرابتى وقال عمر بن الخطاب للعباس : والله لاسلامك يوم أسلمت كان أحب الى من اسلام الخطاب لو أسلم لأن اسلامك كان أحب الى رسول الله من اسلام الخطاب . كما روى الترمذى عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه وأحبونى بحب الله وأحبوا أهل بيتى بحبى (٢) .

ونقل صاحب الكشاف عن النبى أنه قال : من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ألا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها الا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان الى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره قرار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١١٣/٤
(٢) السابق والصفحة .
(٣) تفسير الفخر الرازى ٤٠٥/٧

هذا مارواه صاحب الكشاف يورده مرسلا من غير سند • ومعروف أن الزمخشرى من أئمة المعتزلة ، والمعتزلة الى التشيع أقرب فواصل ابن عطاء شيخهم تعلم فى مدرسة ابن الحنفية بالمدينة حتى ليقال : ان التشيع نما فى أوساط المعتزلة نمو الخضاب فى اليد فالحديث غير صحيح • ومع التسليم بصحته فان المحبة والمودة فى هذا الحديث دائرة فى المحيط الاجتماعى وميدان الأخلاق والتعامل مع آل البيت أيا كانوا •

وللرازى تعليقه على ما أورده الزمخشرى يقول فيه : وأنا أقول آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يئول أمرهم اليه فكل من كان أمرهم اليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعليا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين الرسول أشد التعلقات فوجب أن يكونوا هم الآل • وقيل ان الآل هم أمته • فان حملناه على القرابة فهم الآل وان حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل (١) •

وقد ورد أن النبى كان يحب فاطمة حتى قال فاطمة بضعة منى يؤذينى ما يؤذيها وأنه كان يحب الحسن والحسين ، واذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله تعالى : « واتبعوه لعلكم تهتدون » (٢)

ولقوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » •

ولأهمية مودة الآل ومحبتهم جعل الدعاء لهم خاتمة التشهد فى الصلاة وهو قوله : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » فهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل • كل ذلك يدل على حب آل محمد وأبعاد هذا الحب يقول الشافعى :

يا راكبا قف بالمحصن من منى
واهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا اذا فاض الحجيج الى منى
فيضا كما نظم الفرات الفائض
ان كان رفضا حب آل محمد
فليشهد الثقلان انى رافض (٣)

---

(١) السابق ٤٠٦/٧
(٢) سورة الاعراف ١٥٨ •
(٣) تفسير الفخر الرازى ٤٠٦/٧

وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا (١) كمـا روى أنه قال : أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم • ونحن الآن فى بحر التكليف تضربنا أمواج الشبهات وراكب البحر يحتاج الى أمرين أحدهما : السفينة الخالية من العيـوب والثقوب والثانى : الكواكب الظاهرة الطالعة النيرة •

وأيا مايكن فان مفهوم مودة آل البيت والتشيع لهم تعنى عدم ايذائهم بقول أو عمل وحسن معاملتهم • حدث وكيع بسنده عن أبى الحمراء قال : رابطت بالمدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال رأيت رسول الله اذا طلع الفجر جاء الى باب على وفاطمة فقال : الصلاة الصلاة • انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا • وحدث شداد بن عمار قال : دخلت على واثلة بن الاسقع رضى الله عنـه وعنده قوم فذكروا عليا رضى الله عنه فشتموه فشتمته معهم فلما قاموا قال لى : شتمت هـذا الرجـل ؟ قلت قد شـتموه فشـتمته معهم • قال : ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال بلى • قال : أتيت فاطمة رضى الله عنها أسألها عن على فقالت توجه الى رسول الله ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ومعه على وحسن وحسين رضى الله عنهم أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى عليا وفاطمة وأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه أو قال كساءه ثم تلا انما يريد الله ليذهب عنكم الرجز أهل البيت ••• الآية وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى وأهل بيتى أحق •

وروى أن نساء من قريش حضرن فاطمة فى مرضها وقلن لها : كيف أنت يا بنة رسول الله قالت أجـدنى كارهة لدنياكن مسرورة لفراقكن فما حفظ لى الحق ولا رعيت منى الأمة ولا قبلت الوصية ولا عرفت الحرمة (٢) •

فجوهر التشيع هنا هو المحبة والمودة فى المحيط الاجتماعى دون أن يكون من مقتضياتها شىء من الخلافة أو الامامة •

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١١٤ وانظر تفسير الفخر الرازى ٧/٤٠٦
(٢) تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام ٢/٧

أما مايرويه الشيعة وما تزخر به كتبهم من أحاديث ووصايا تؤكد أن مفهوم المودة تقتضى وجوب أن تكون الخلافة فى على وأبنائه وأن عليا كان أحق بها من الثلاثة قبله فشىء منه لم يثبت ولو ثبت لاشتهر ولما وسع أبا بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة أن يهملوه أو يتجاهلوه .

واذا وقف التشيع عند حدود الحب والمودة فالمسلمون كلهم شيعة بهذا المعنى يرون أن عليا رابع الخلفاء الراشدين ويكنون له ولأولاده كل الحب والمودة فهو الوحيد من الصحابة الذى احتفظ فى كتب أهل السنة بلقب « الامام » (١) ورغم كل ما قام به الأمويون من دعاية وما أعلنه النواصب من عداوة لعلى فقد احتل فى عقائد الناس المكان والمكانة .

هذه هى آليات التشيع فى اطارها الدينى أو فى بعدها العقدى ومن العجب أن يبدأ التشيع بعقيدة هذه آلياتها وتلك حدودها وذلك مضمونها أو حتى أن يبدأ بعقيدة مؤداها أن على بن أبى طالب هو الامام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالنص الجلى أو الخفى وأن الامامة لا تخرج عنه وعن أولاده ــ وان خرجت فبظلم من غيره أو تقية منه ومن أولاده . عجبا أن يبدأ هكذا ثم ينتهى الى مذاهب فلسفية أو سياسية معقدة تمام التعقيد مركبة من مختلف المذاهب أو بمعنى آخر ان منظومة فى حب آل البيت تتطور خلال التاريخ وتبعا لحوادث السياسة الى مذهب فلسفى يبطن اليهودية أحيانا والغنوص أحيانا أخرى وتنتشر حولها مجموعات من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم تحاول القضاء على رسالته .

وهذه التطورات التى طرأت على منظومة التشيع جعلت من الخطأ أن يقال : ان هناك تشيعا واحدا خلال التاريخ . فقد كان لكل عصر نوع من التشيع ولكل طائفة شيعية نوع من التشيع . وما أشد الخلاف بين حب مجموعة من الصحابة لعلى فى عهد الرسول وفى عهد الشيخين وبين حب أنصار على الملتفين حوله فى طرقات البصرة والكوفة ، وما أشد الخلاف بين هذا الحب وبين جرأة الترابيين من أصحاب حجر بن عدى وفداء التوابين من أصحاب سليمان بن صرد ، ويعظم الخلاف بين عاطفة كل من سبق وبين الشيعة فى عهد جعفر الصادق حيث نشأ المذهب الكلامى

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ٣٢/٣

للشيعة وفتق المتكلمون من تلامذة جعفر الكلام فى الامامة وخاضوا فى الفلسفة فى جميع نواحيها . ما أشد الخلاف ثالثة بين كل هذا وبين عقيدة الاثنى عشرية بعد الامام الثانى عشر . وليست هذه كل صور التشيع بل هناك الزيدية يقتربون من أهل السنة ــ وهم بعد شيعة ــ والاسماعيلية يبتعدون عن أهل السنة وعن الاثنى عشرية ــ وهم بعد شيعة ــ والكيسانية وهم أتباع محمد بن الحنفية أو شيعته ، والغلاة من قرامطة وبيانية وخطابية ودروز ونصيرية ... الخ ــ وهم كلهم شيعة ــ .

وهكذا فالتشيع ظاهرة مركبة معقدة . بين طوائف الشيعة قديما وحديثا من الاختلاف ما ليس بين طوائف أهل السنة قديما وحديثا فليس بين الخلف والسلف وهم فريقا أهل السنة الكبيران الآن ما بين الاسماعيلية والاثنى عشرية وهم فريقا الشيعة الكبيران الآن من خلاف كبير وتنافر شديد .

تطور الحب عند الشيعة الى غلو وليته غلو فى الحب فحسب وانما غلو فى العقيدة أيضا فنسبوا لغير واحد من آل البيت النبوة أو الألوهية أو علم ما كان وما هو كائن وما سيكون أو الخلود والرجعة الى غير ذلك من غلوهم ومبالغاتهم مما هو خارج تماما عن التشيع وعن المفهوم الصحيح لمنظومته . وبهذه الاعتبارات خرجت تلك المنظومة ــ أو كادت ــ عن الخطاب الدينى الاسلامى بعد أن كانت متلائمة معه فى سطورها أو فصولها الأولى .

د. / عبد الفتاح احمد الفاوى